شاهد في عصر الوباء

#Covid19

مقالة بعنوان:

شاهدة على نفسها!

زرت جارتي "امتنان" غرة شهر ذي القعدة عام 1441 بعد رفع حظر التجول الذي فرض في المملكة العربية السعودية للحد من انتشار فايروس كورونا المستجد ضمن عدد من الإجراءات الاحترازية؛ منها إيقاف الصلوات، وإغلاق جميع المؤسسات التعليمية، وإقفال كثير من الأنشطة التجارية، حيث سخرت الحكومة كافة الجهود والإمكانات للحفاظ على الصحة العامة والتقليل من الخطر المحدق بالعالم، وبذلك توقفت الحياة في الكون بأسره وكأننا في كابوس، وقضينا قرابة أربعة أشهر في حال تأهب قصوى وترقب لما سيأتي.

رحّبت بنا امتنان بكل حفاوة وشوق، وكانت هادئة جدا على خلاف شخصيتها العصبية والمتقلبة، وظهرت لنا بشكل مهندم دون تكلف؛ فلأوّل مرة أراها بدون مساحيق تجميل، وتحدّثت مضيفتنا بإسهاب عن مدّة قضاء الحجر المنزلي، وكيف أسهم في تغيير نمط حياتها بدرجة كبيرة، واسترسلت في كلامها والشعور بالرضا يغمرها.

وممّا قالته: "أيعقل يا جارتي العزيزة أننا لم نستشعر فيما مضى أهمية النعم التي تحيط بنا؟ ولم نلاحظ وفرة النعم حولنا بفضل الله دون أن نشكره كما يستحق؟ ألا تلاحظين أن المصافحة التي نمارسها دون وعي صارت ممنوعة؟ وأن العناق بات يمثل خطرا علينا؟ ثم بتنهيدة عميقة أكملت كلامها: لا أخفيك سرا أني كنت أعتقد بأني أم مثالية تسعى لتربية أبناءها التربية التي يشار إليها بالبنان، ولم أختبر في يوم ما حقيقة أمومتي إلا منذ أربعة أشهر انقضت، فأدركت حينها أن كل شي ليس كما يبدو عليه في مخيلتي، وأن الأمومة الحقة تجر أذيال الخيبة من طريقتي، فأبنائي اعتادوا على هجر المنزل ساخطين بشدة، فلا مذاق الطعام المنزلي مستساغ عندهم، ولا محاولاتي البائسة في اختلاق الأحاديث معهم تلهيهم عن التذمر؛ أصبح الأمر صعبا بل أشبه بالسراب، فكلما حاولت أن أقترب منهم خطوة أجد أني عالقة في مسافات من البعد النفسي عنهم مع تقارب الأجساد، حتى جثمت عقارب الساعة على صدري من ثقل وقع هذه الحقيقة، فأصعب ما يواجه الإنسان أن يكتشف بأن ما يعتقده مجرد وهم، وأن جهودي معهم فيما مضى لم تعدو كونها إشباعا ماديا فقط، فأنا لم يسبق لي أن ضحكت معهم بتودد، أو حتى أن أدرك حجم المعاناة التي تجتاحهم لافتقادهم عاطفة الحنان، اعتقدت أني أم مميزة بما تعنيه الكلمة حينما كنت ألبي جميع رغباتهم دون توجيه لهم وتهذيب، لقد صنعت منهم أشخاصا فارغين من الداخل، ولم أسْقِ أراوحهم بالتربية والتوجيه، كما أنني جهلت أمرا لا يغتفر في التربية؛ فأنا لم أغرس فيهم القيم السامية التي تقوّم السلوك وتربي النفس، بل على النقيض من ذلك، كان الجزع والسخط ديدن الأسرة، فتملكني تأنيب الضمير، وعرفت بعد

مراجعة أن ما نغرسه في الرخاء سيظهر لنا وقت المحن، ولأول مرة في حياتي أشعر أن الأمومة هي حضور بالقلب تنعقد معها النية على التربية، وأن المسؤولية ليست فقط بتوفير الطعام ولا صناعة ترفيه بلا معنى، بل هي أن تخاف الله فيمن ترعاهم؛ فأنت عنهم مسئول، وكأن ما حدث كان رسالة ربانية لنعيد فيها تأهيل أنفسنا، وأن نغدو أسرة مترابطة بعدما فقدنا شعور المودة والسكينة والتماسك، وبعد مرور هذه الأيام الطويلة والشاقة مع الأبناء، أسندت ظهري في يوم مشرق على الأريكة بشعور عامر."

لثوان صمتت امتنان، ثم استطردت حديثها: "اليوم يا جارتي العزيزة وبعد مرور عدة أشهر من الجائحة التي لا تزال أثارها قائمة، أعترف بأني أبحرت كثيرا في ذاتي، ووجدت أنه لا شي يعادل استقرار الأم النفسي واستعادة كينونتها وطبيعة وظيفتها في الأمومة، واستشعار معنى الأمانة في ذلك، حتى تتزن الحياة بوجودها؛ فبقضائها أطول وقت ممكن مع عائلتها في منزلها لذة لا يعادلها شيء في الدنيا، وتجلت لي حقيقة واحدة بعد المكوث الجبري بين أحضان أبنائي وقبلاتهم، خلاصتها أن الأسواق ستبقى كما هي، وأن عطرا واحدا يفوح شذى الحب منه يكفي، وقلم شفاه أحمر كفيل بجعل مظهرك أنيقا، وأن الزيارات ستعوض لاحقا، ووسائل التواصل الاجتماعي لن يفوت منها شيء مهم؛ كل ذلك لن يذهب، بيد أن العمر يسرق منا أجمل اللحظات، فالأبناء يكبرون بسرعة لا يمكن تصورها، ناهيك عن أنهم يكبرون بمعزل عن أجواء الألفة والسكينة والاحتواء، وهو الأمر الآخر الذي أجده حتما تغير لديّ وأثر على أسرتي إيجابيا، فأصبحت أشبه أمي - رحمها الله - تلك السيدة الفاضلة التي قاسمتنا كل ما تملك لنعيش لحظات جميلة، وصنعت لنا ذكريات لا تنسى، أمي التي وضعت لنا بين دفتي غطائها الوثير قصصا تشبه الخيال، ولم تبرح مكانها حتى بلغت ما ترجوه فينا، تلك السكينة التي منحتنا إياها منذ كنا أطفالا كان خلفها الحزن والفقر والحرمان دون أن نشعر، لكن لم تفارقها الابتسامة، كانت وظلت دائما تردد على مسامعنا: أنتم إخوة ليشد كل واحد منكم عضده بيد أخيه، واجعلوا الله نصب أعينكم تسعدوا!

فيا جارتي الغالية كل بلاء نحسبه شر هو خير كثير، وما كان ظاهره عذاب فباطنه رحمة، فلله الحمد من قبل ومن بعد، ونسأل الله أن يرفع عنا البلاء ويمتعنا بالعافية، ويحفظ لنا أنفسنا وبلادنا وعافيتنا، ويجعلنا من أهل الاعتبار والتدبر، الحامدين لله على كل حال.

بقلم /حلا بنت قاسم الفهيد

آسيـة الوقفيـة
Asyeh Al wakfiah